

الدور الحتمي للعوامل المؤثرة في تكوين الثقافة

الباحثة شهد صباح مجيد

الاستاذ الدكتور عقيل صالح فيصل

قسم الفنون التشكيلية / كلية الفنون الجميلة / جامعة البصرة

المخلص:-

تمثل الثقافة (Culture) عنصراً أساسياً ومركزياً في حياة الإنسان , فهي إنعكاس لطريقة عيشه وتفاعله مع البيئة التي يعيش فيها والجماعة التي ينتمي اليها, فالإنسان بطبعه كائن اجتماعي يولد في بيئة ومحيط يتفاعل معه وينسجم مع قيمه , تلك القيم تحدد سلوكياته وتؤثر في توجهاته , فتصبح التوجهات الثقافية رابطة تربط الإنسان بمجموعة من البشر بفعل تواصلهم ومحاولتهم في إبتداع حاجاتهم الفكرية والفنية والأدبية والعقائدية , ونجاحة في صنع ثقافته الخاصة تجعل له هوية ثقافية تميزه عن بقية المجتمعات وتصبح تلك الثقافة خاصية لذلك المجتمع , وتولد الثقافة محملة بعدة مؤثرات تتفاعل فيما بينها من أجل خلق الفعل التفاعلي الذي ينتج عن السلوكيات التي تولدها القيم الصادر عن ذلك الناتج المؤثر

كلمات مفتاحية: الثقافة , العوامل الثقافية , التقنية , السلطة , الحتمية الجغرافية.

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٢/١٢/٠٨

تاريخ القبول: ٢٠٢٣/٠١/٢٣

The Inevitable Role of the Influencing Factors in trhe Formation of Culture

Res. Shahad Sabah Majeed

Prof. Dr. Aqeel Salih Faisal

Dept. of of Plastic Arts / College of Fine Arts /University of Basrah

Abstract:

Culture represents an essential and central element in a person's life, as it is a reflection of his way of living and his interaction with the environment in which he lives and the group to which he belongs. By his very nature, man is a social being who is born in an environment and surrounding with which he interacts and harmonizes with its values. These values define his behaviours and impacts his trends. The cultural trends are a bond that binds a person to a group of people due to their communication and their attempt to create their intellectual, artistic, literary and ideological needs, and his success in creating his own culture gives him a cultural identity that distinguishes him from the rest of the societies.

Keywords: Culture, The Cultural Factors, Technique, Authority, Geographical Inevitability.

Received: 08/12/2022

Accepted: 23/01/2023

المقدمة:-

عرفت الثقافة مكانة مميزة في الأبحاث والدراسات على إختلاف توجهاتها واختصاصاتها فعدت مادة مهمة في دراسة المجتمعات , اذ تبرز (الثقافة) كعنصر لاغنى عنه في الدراسة التي تهدف إلى التعرف على الحياة الإجتماعية والإنسانية , إذ انها تلقي بالإنسان في عمق الإنسان بحيث يكون قادراً على فهم الطبيعة الإنسانية لفئة محددة من الناس من خلال محيطها وموروثها الثقافي والإجتماعي , بل إنها تعكس أيضاً الفكر السائد للمجتمع في زمان ومكان معينين

وتلعب الثقافة بمفهومها دوراً بارزاً في مختلف العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع Sociology وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا- Anthropology) و(الاثنولوجيا Ethnology) وعلم النفس Psychology والعلوم التجريبية كعلم (الأركيولوجيا Archaeology) -علم التنقيب – الحفريات, , ويتخذها محوراً لإهتمامه , إذ تعاضد دور الثقافة مع نشأت العلوم الإنسانية المختلفة التي بدءاً من مطلع القرن الثامن عشر وكانت وسيلة مهمة لفهم الإنسان ومدرجاته وسلوكياته , وقد مثلت هذه العلوم أولى محاولة لفهم الإنسان خارج حدود التفكير الفلسفي , بل وحتى الفلسفي , إذ عملت الحضارة الأوروبية على إقامة القطيعة بين الديني والدنيوي لتتطور دراسات المتعلقة بالإنسان ويظهر مايعرف بالعلوم الإنسانية, علوم أعادت تركز الإنسان وسط الوجود فهو محور الدراسة والمبدأ والغاية ليتحول الإهتمام من العلوم الدينية إلى علم الإنسان^(١)

١- المعنى الإصطلاحي للمفهوم

نشأ مفهوم الثقافة قبل دخوله كمادة للبحث على طاولة العلوم الإجتماعية كلفظ (culture) أستعمل على اللسان الفرنسي في عصر الأنوار في القرن الثالث عشر الذي كان يعني (الزراعة) مشتقاً من الفعل اللاتيني (colcer) الذي يعود للعصور القديمة والوسيلة , ويقال ان الخطيب والسياسي والكاتب الروماني (شيشرون ١٠٦ – ٤٣ ق.م) كان أول من أستعمل هذه الكلمة بمعناها المجازي , فسعى الفلسفة (culture mentis- أي فلاحه العقل او تنميته)^(٢)

ويعد ارتباطها باللفظ بمفهوم الحرث والزراعة يتعلق بطبيعة النفسية الأوروبية بشكل عام, فالإنسان الأوروبي هو أبن الأرض والحضارة الأوروبية هي (حضارة الزراعة) وعليه فان العمليات التي تستنتج من الأرض خيراتها كالحرث والبذر والحصاد لها بالضرورة دور هام في نفسية الإنسان الأوروبي ولها دور هام في صياغة رموز حضارته , وأستعمل هذا الرمز الدلالي ليشير إلى الثقافة بكونها مجموعة ثمار الفكر من فن وفلسفة وعلم وقانون وغيرها من إنتاج الأبداع البشري للتعبير عن حاجاته وأسلوب عيشة, ولما كانت اللاتينية أم اللغات الأوروبية فقد إنتقل المصطلح للسان الأوروبي , حيث استعملت كلمة ثقافة في أوائل العصور الحديثة في اللغة الفرنسية أولاً, ثم حصل تحرك في المعنى الدلالي في القرن السادس عشر ليعبر عن تطور الكفاءة ,

حتى أنتقل المفهوم كمصطلح أستقر في القاموس الفرنسي عند القرن الثامن عشر وأصبح تطور هذا المعنى أكثر شمولية في الفكر (من الثقافة باعتبارها حالة إلى اعتبارها فعلاً) وأصبح مصطلح (ثقافة) مصحوبة بمضاف يدل على موضوع الفعل مثل (ثقافة الفنون) و(ثقافة الآداب) و(ثقافة العلوم) حيث إنتمت الكلمة إلى ثقافة لغة الأنوار ثم انتقلت إلى خارج فرنسا إلى العواصم الأوروبية وأقترن هذا اللفظ بأفكار التقدم والتطور لتدل عن ماهو كلي وشمولي لفئة محددة من الناس , وهنا بدأت الكلمة تتحول دلالتها من الأنماء الفردي إلى أحوال المجموعات الإنسانية من الأمم والشعوب وغدت تطلق هذه الكلمة على مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات, وبدأت تعبر عن وجه الإنسانية بعد إستخدامها على اللسان الألماني ودلالاتها عن خصوصيات الأمم وشكل هذا المصطلح بمعناه الألماني حاجة لدى للألمان للتعبير عن مميزات وخواص الأمة الألمانية , حيث أصبحت الثقافة في معناها الألماني تتصل بروح الشعب , وأصبحت معبرة عن جملة من المنجزات الفنية والفكرية والأخلاقية التي تكون تراث الأمم , وأخذ هذا المفهوم يفرض نفسه في معناه المجازي بالرؤية الألمانية له , وقد ساهم ولع الأوساط المثقفة بالفلسفة والآداب الألمانية التي كانت في أوج إشعاعها إلى إنتشار المعنى الألماني إلى جميع أنحاء أوروبا^(٣)

ودخل المصطلح في إستعماله بالدلالة الألمانية للمفهوم في اللغة العربية فقد أستعمل لأول مرة من قبل الكاتب المصري (سلامة موسى) في كتابه (اليوم وغد القاهرة) , فيقول " كنت أول من افشى لفظة الثقافة في الأدب العربي الحديث ولم أكن أنا الذي سكها بنفسه فاني انتحلتها من (ابن خلدون), اذ وجدته يستعملها في لفظ (كلتور - Culture) الشائعة في الأدب الأوروبي , فالثقافة هي المعارف والعلوم والآداب والفنون يتعلمها الناس ويتثقفون بها , وقد تحتويها الكتب ومع ذلك هي خالصة بالذهن "^(٤)

ويعد تحديد المسمى (المصطلح) خطوة أولى نحو البحث , كون المصطلح يعد مفتاحاً لأي مبحث علمي , اذ اتخذ مسمى الثقافة سبيله في مضمار كتابات الرعيل الأول من المختصين في العلوم الإنسانية وشكل واحداً من المسميات الرائجة, هذه الكتابات قدمت توضيحاً حول مفهومية هذا المسمى ومنحته تعاريف عديدة بحسب آراء المختصين الذين حاولوا أولاً إيجاد حدود للمعنى العام من خلال منحه تعريفاً يحدد معناه أدى التطور الدلالي الحاسم للثقافة وإبتداع المعنى العلمي للمفهوم إلى ظهوره و بصورة جلية في أبحاث المختصين الذين عدوها محور دراستهم في كافة الميادين التي اشتغلوا عليها , ومع تعدد المفاهيم والزوايا والتأويلات التي ينظر للثقافة من خلالها, حاولوا أولاً تقديم وصفاً دقيقاً للمفهوم , على الرغم من إعتراف بعضهم إن مفهوم الثقافة من المفاهيم المعقدة , اذ يرى أحد أهم منظري الثقافة (ريموند وليم Raymond/Williams ١٩٢١-١٩٨٨) في كتابه (كلمة رئيسية - Keyword) إن الثقافة تعد واحده من أكثر المفردات تعقيداً , فالتفسير اللفظي لهذا المصطلح أبعاد كبرى ودلالات كثيرة وإيحاءات متعددة إذ يضيق

المدلول اللغوي عن ضبطها أو حصرها أو احتوائها وهذا ما يجعل للمفهوم تعاريف متعددة بحسب رؤية المختصين في دراسة هذا المصطلح , ويعد عالم الأنثروبولوجيا الانجليزي (أدوارد تايلور Edward Tylor (١٨٣٢-١٩١٧) أول من عرف الثقافة في كتابه (الثقافة البدائية) بأنها " المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع" ^(٥)

ويشير معنى الثقافة بالنسبة إلى تايلور الذي يعد تعريفه للثقافة التعريف الأبرز والأكثر مآخذاً وتداولاً في الأوساط والأبحاث الإنسانية لما يقدمه التعريف من منح مفهوم حاسم وأكثر وضوحاً , ويذهب تايلور في تعريفه إلى عدة أمور لابد من التطرق لها وهي أن الثقافة أولاً تعبر عن كلية حياة الإنسان الاجتماعية وتتميز ببعدها الاجتماعي , كما يؤكد (تايلور) في تعريفه على كون الثقافة مكتسبة لاتأتي بالوراثة البيولوجية – اي ليست عملية إنتقال فطري أو غريزي , ولعل هذا التصور الذي قدمه (تايلور) ومن بعده قد هدم مفهوم (المركزية الانثنية) * الذي كان يحتل إعتقاد الأوروبيين آنذاك, فالعناصر الثقافية تكتسب بحسب (تايلور) من خلال الخبرة من التعامل مع المكان والظواهر وتعامل الأفراد وليست صفة بيولوجية بحسب ما كان يذهب اليه شعوب أوروبا في تفاضلهم على غيرهم من الشعوب, والأمر الآخر الذي أكد عليه تايلور في تعريفه للثقافة هو ان الثقافة شيء منتج بشرياً, وهذا ما يؤكد عليه (ريموند وليم) بتفريقه بين ماهو موجود وماهو مبتكر من خلال تفريقه بين ما يوجده الإنسان ويمارسه بأعتباره ثقافة وبين ماهو موجود ويحدث بدون تدخل الإنسان باعتباره معطى طبيعي , كما يرى العالم الانثروبولوجي الأمريكي (رالف لنتون Ralph Linton (١٨٩٣-١٨٥٣) ان الثقافة " هي النمط المميز للحياة التي تعيشها الجماعة - أي إنها شكل متكامل من السلوك المكتسب ونتائجه , أي مجموعة الأفكار والعادات التي تعلمونها ويشاركون فيها وينقلوها من جيل إلى جيل آخر بما فيها العنصر المادي ^(٦) , فالثقافة بحسب التعاريف السابقة هي مجمل أساليب الحياة التي تميز الشعوب المختلفة وهو بحسب (كلايد كلوكهون Clyde Klukhohn / ١٩٠٥-١٩٦٠) خصائص وميراث جماعي للفرد فيقول " لايمكن فهم الثقافة غير انها مجموعة طرائق الحياة لدى شعب معين , أي الميراث الجماعي الذي يحصل عليه الفرد من مجموعته التي يعيش فيها, أو هي الجزء الذي خلقه الإنسان في محيطه" ^(٧)

وقد عكف الأنثروبولوجيين على دراسة الثقافة بالعودة الى العقل البدائي والمجتمعات البدائية ومحاولتهم للبحث عن جذور الثقافة وبداياتها وتطورها ومحاولة العثور عن أسباب ظهورها, وقد شكلت هذه التساؤلات المادة التي إتخذها العلماء للدراسات الإنسانية باعتبارها تمثلاً لتفرد البشر عن غيرهم , كما كانت مصادر الممارسات مثل القيم والممارسات نفسها كالعادات مركز أهتمام للبحث في الثقافات المختلفة التي تشكل الأمم والشعوب , فكان النشوء والدوافع النشوء منطلق لفهم المنظومة الثقافية

٢- نشوء الثقافة

إن البحث في نشوء الثقافة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بنشوء المجتمعات، فعلى الرغم من أن ظهور أولى الممارسات الثقافية قد بدأت مع بداية وجود الإنسان على الأرض حيث عدت التراكات المادية لإنسان الكهوف مؤشراً على وجود ممارسات عقائدية تتمثل في بعض الطقوس وأساليب حياتية إلا أنها كانت فقيرة ولم تظهر بشكل منتظم ومتواتر إلا مع بداية نشوء المجتمعات، إذ نشأت الثقافة كمنظومة ممارسات مع نشوء أولى التجمعات السكانية نهايات العصر الحجري الحديث، حيث بزوغ أول وجود المجتمعات بعدما شكل عدد من السكان جماعات تعيش في أماكن وتنظم بشكل أو بآخر داخل عشائر وقبائل ومدن، هذه التجمعات طرحت إشكاليات متعددة حول أسبابه، وتم التعامل مع هذه الإشكالات عبر التاريخ بطرق متباينة من التحليلات الدينية والأسطورية للخلق التي حاولت إرجاع المجتمع لألهة وآباء مؤسسين وشخصيات خيالية بعثت المجتمع وعملت على التحكم فيه، ثم التحليل الفلسفي الذي حاولت النظر بشكل أكثر واقعية، إلى أن وصل إلى الدراسات الإنسانية التي بحثت في جوانبه المتعددة ومنها الجانب الثقافي، وطرحت السؤال ذاته وعن الأسباب التي جعلت من الناس يعيشون على شكل جماعات بتنظيم دول وقبائل ومدن، خاصة أن البحث الأركيولوجي قد قدم معلومات كبيرة عن الشعوب القديمة التي عدت بدايات لهذا التجمع

وقد قدمت الفلسفة منذ الجهابذة الأولين رؤاها حول هذا الموضوع بدءاً من الفلاسفة (السفصطائيين) الذين رأوا في الاجتماع حاجة ومنفعة للأفراد مؤكدين على مسألة التعاقد ما بين الجماعة وأهميتها في الإستمرارية لتلبية متطلبات الفرد "فالتعاقد بين الأفراد يؤدي إلى تحقيق أغراض نفعية" ^(٨) وهذا التجمع هو أساس قيام الشعوب ونظام الدولة، وهذا هو ذاته ما يراه ويبينه الفيلسوف اليوناني (أفلاطون / plato / ٤٢٧ ق.م - ٣٤٧ ق.م) في كتابه (الجمهورية) في أن التجمع هو بحث عن الأكتفاء الذاتي للأفراد من خلال التعاون فيما بينهم فينشئ التجمع من حاجة للفرد ^(٩)، إذ يذهب هؤلاء الفلاسفة من إن الإنسان لا يستطيع أن يحيا لوحده إلا بتعاونه مع آخرين حتى تتكامل نشاطاتهم فيما يخص حاجاتهم الضرورية من الغذاء والسكن والملبس، هذا على غير ما قدمه الفيلسوف اليوناني (أرسطو / Aristotle / ٣٨٤-٣٢٢ ق.م) صاحب نظرية (الأصل الطبيعي) الذي رأى فيه للإنسان دافعاً طبيعياً للاجتماع بغض النظر عن مسائل المنفعة، ويبدأ الاجتماع بين شخصين من جنسين مختلفين أن يجتمعا من أجل الإنجاب ثم الأسرة والعائلة التي هي أول صورة للاجتماع الإنساني الطبيعي ثم تجمع الأسر والعائلات في قرى وبالتالي تكوين الدول وبها تتحقق كفاية حاجات أفرادها، إلا أن الحاجة الأساسية للتجمع هي الغريزة فيقول "الطبع أذن يدفع الناس بغرائزهم إلى الاجتماع" ^(١٠) فأرسطو يذهب إلى كون الإنسان في تكوينه كائناً اجتماعياً، والناس يميلون طبيعياً إلى العيش داخل مجتمع، وهذا التصور قد بقي مستمراً في الفلسفة الإسلامية وخاصة عند (ابن خلدون)

حيث يذهب (ابن خلدون) المؤرخ والفيلسوف ورجل السياسة المسلم الذي يعد مؤسس علم الاجتماع الذي أحدث فتحاً جديداً على صعيد البحث المنهجي للتاريخي على جميع المؤرخين العرب وعلماء الغرب، إلى مبدأ الحاجة الطبيعية للإنسان فيقول "إن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحقيق حاجته، وإن اجتماعهم إنما هو للتعاون بتحصيل حاجاته في معاشه"^(١١)

وقد أسس (ابن خلدون) منهجاً علمياً رفض فيه المثالية التاريخية - أي المذهب الذي يرى في المجتمع مظهراً ميتافيزيقياً، بل هي حتمية لحاجة لذلك الاجتماع، فالاجتماع ماهو لإسبباً لتلك الحتمية التي تقودها الحاجة، إذ ربط إحتياجات الإنسان بالطبيعة الفطرية مستنتجاً أن زيادة هذه الإحتياجات يؤدي إلى التقدم الحضاري من خلال الإرتقاء في فكر الإنسان لتحقيق حاجة الأفراد والإعمار فيقول "الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه، وانهم أي الناس متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك"^(١٢)

ويقف (أبن خلدون) عن الدراسة الثقافية بمسمى (علم العمران البشري) ويقصد به علم الاجتماع الإنساني وظواهراته المتنوعة التي هي أبداع الإنسان، "فالعمران هو (الثقافة) التي تطبع المجتمع بطابعها فتمنحه هويته الخاصة"^(١٣)، وهي عملية تطور مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقيام الدول والحضارات وتسلسل إرتقاءها حتى انهيارها، فالثقافة عند (ابن خلدون) تبدأ منذ أن تجتمع أولى التجمعات السكانية مشكلة (قبائل) فينشئ العمران من خلال الإحتكاك ما بين المجتمعين، وهذه العملية ما بين التطور وصولاً للإرتقاء ثم الإنهيار تدخل ضمن إيقاع وصيرورة حركة التاريخ، وما يصحبه من تطور وتغير في العمران البشري، بحيث لا تدوم أحواله على وتيرة واحدة، هذه الحتمية عادت عند هيجل بحيث لا تترك أحداث العالم عنده نهياً للمصادفات والعلل الخارجية العرضية، وهي عند (ابن خلدون) حكمة إلهية أو تدبير إلهي يوجه العالم، وبالتالي فكل ما يحدث في العالم يحدث طبقاً لحكمة إلهية، وهي نفسها السنة الكونية المقررة عند ابن خلدون (سنة الله في خلقه)^(١٤)

في دخول أوروبا في قرون الأنوار أصبحت الدراسات الاجتماعية من أهم الدراسات التي أستحوذت على إهتمام جل علماء القرن الثامن عشر، وقدموا خلالها أفكار وآراء وطروحات متنوعة واخذت تلك الدراسات اتجاهين، يتمثل الإتجاه الأول البحث في أسباب نشأة المجتمع والاتجاه الثاني دراسة السلوك الإنساني الناجم عن ذلك الاجتماع، إذ تأخذ الثقافة كدراسة من خلال الجانب أو الإتجاه الثاني للدراسات الاجتماعية

ففي الجانب الأول ذهب أغلب علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع إلى إن البشر لا يستطيعون الاكتفاء بالحياة لمجرد الحياة ولا يستطيعون مواصلة وجودهم الا بروح المعاشرة الاجتماعية، لذا يرى الكاتب والمفكر (موريس جولدبير Maurice Goldier) "إن البشر على نقيض الحيوانات الاجتماعية الأخرى، حياتهم ليست مجرد حياة في مجتمع وإنما هم ينتجوا المجتمع ليعيشوا فيه"^(١٥)، وهذه الحاجات تنشئ كحاجات طبيعية أساسية للعيش كما يؤكد ذلك عالم الاجتماع الأمريكي (رالف لنتون Ralph Linton / ١٨٩٣-١٩٥٣) في إن المجتمع البشري

ينشأ من حاجات الكائن البشري ، فالتنظيم الاجتماعي يسهم في تلبية حاجات الإنسان الأساسية، وإذا نجح المجتمع في ذلك فانه يتوسع وينمي منجزاته ويسبغ عليها المزيد من الرواق والتهديب فيطور نظاماً معقداً من الطقوس والأنماط السلوكية^(١٦) هنا تنشأ الممارسات والأفكار التي تتبناها المجموعة البشرية وتشكل لبنة الثقافة في أي مجتمع من المجتمعات.

ومهما تعددت الآراء والأفكار في تفسير وشرح مفهوم الثقافة وتعدد النظريات حول تأثيرها في حياة المجتمع كونها تمثل الحياة بذاتها ، فلا يمكن حصر جميع تلك الآراء لكثرتها ، فالثقافة ومفهومها كانت ولا زالت على طاولة البحث لما لها من أهمية بالغة في حياة المجتمعات المختلفة ، وتنشئ الثقافة محملة بتأثيرات عديدة تشكل قوامها وتساهم في إنتاجها وهي عوامل محيطة بالإنسان وتساهم في تأسيس كيانه الاجتماعي، وترى (الباحثة) أهمية التطرق لهذه العوامل وبشكل مفصل من أجل فهم تكوين الثقافة بشكل أكبر .

تمثل العوامل طائفة من المؤثرات التي تؤثر في مجتمع من المجتمعات وتؤدي إلى تكوين ثقافته الخاصة، أذ تلعب الظروف المحيطة والمتعلقة بالزمان والمكان دوراً هاماً في تكوين الأنماط العامة لثقافة ذلك المجتمع ، كما إن لكل فترة أو مرحلة تاريخية من حياة البشرية مؤثرات مختلفة بحسب المتغيرات التي تطرأ على هذه العوامل نظراً للتحويلات المستمرة والتغيرات الحاصلة في المجتمعات، والإختلاف الحاصل ما بين تلك المجتمعات نتيجة اختلاف تلك العوامل التي تؤسس ثقافتها وتراثها الحضاري، و يرى العالم الأنثروبولوجي الأمريكي (مارفن هاريس *Marvin Harris* / ١٩٢٧-٢٠٠١) الذي كتب في تاريخ النظرية الأنثروبولوجية وفي الانثروبولوجيا الثقافية "ان الظروف البيئية والاقتصادية والتكنولوجية تلعب دوراً رئيسياً في تطور الثقافة الاجتماعية ولا يمكن فهم الجوانب الثقافية للحياة الاجتماعية الا بالرجوع إلى تلك الظروف"^(١٧)

فالإنسان رهين بما يحيط به من ظروف مختلفة سواء كانت تلك الظروف طبيعية مثل عامل البيئة أو ظروف من صنع الإنسان ذاته كالاقتصاد والسياسة وغيرها ، وتشكل هذه الظروف أفكار تنتج عنها رؤى وممارسات تعد جزءاً كبيراً من شخصيته وإتجاهه ، كذلك الجماعة وهذا ما يجعل من الشعوب على إختلاف في ميولها ، بل وحتى شكلها ، وفي هذا الصدد تقدم الباحثة شرحاً مفصلاً حول تلك المؤثرات كعوامل تسهم في تشكيل الثقافة العامة للمجتمعات .

اولاً: العامل البيئي (الحتمية الجغرافية)

إن موضوع تأثير الإنسان بظروف بيئته الطبيعية في عاداته وصفاته العقلية والجسدية موضوع قديم شغل فكر كثير من الفلاسفة والعارفين بدءاً من مفكري الأغريق خلال القرون ما قبل الميلاد، فالفلسفة منذ فلاسفتها الأولون حاولت إيجاد تلك العلاقة الرابطة ما بين الإنسان كتكوين نفسي وبيولوجي وثقافي بالمكان ، فمثلاً الفيلسوف الأغريقي (فهيبيوقراط - ٤٢٠ ق.م) وفي كتابه (الجو والماء والأقاليم) ينبه إلى دور البيئة في

تكوين الإنسان وتحديد سلوكياته , حيث يذهب إلى إن الاختلافات بين سكان الأقاليم في الصفات الجسمانية والنفسية إنما يعزى إلى طبيعة المكان المؤثرة في تكوين الإنسان والمجموعة السكانية, وقد عزز رأيه من خلال مقارنة وضعها ما بين شعوب تتعرض لظروف مناخية مختلفة ويعرض من خلالها إختلاف تلك الشعوب بإختلاف طبيعة البيئة المحيطة بهم , أما (أرسطو) فقد توقف كثيراً في كتابه (السياسة) عن تلك العلاقة الجامعة بين المناخ وطبائع الشعوب رابطاً الطبائع بالوضع البيئي الذي يحيط بها , ومثلما قدم (هيبوقراط) مقارنة ما بين شعوب مختلفة , قدم أرسطو مقارنته في بين سكان الشرق واختلافهم عن الغرب وربطها بدوره بالجانب الطبيعي البيئي , وإنتهى الى تحديد صفات الشعوب كنتاج عن تلك الظروف , اذ رأى في سكان أوروبا الشجاعة , إلا إن ما ينقصهم التفكير السليم على عكس سكان الشرق الحكماء الذي وصفهم بأنهم منزوعي الحرية , فيرضون بحياة الذل والهوان, ويعزو فضائل الأغريق بحكم موقعهم بين الشرق والغرب فقد اجتمعت فيهم فضائل الجانبين, ونظرا لأهمية العنصر البيئي وتأثيره في الإنسان فقد وضع (افلاطون) من بين قوانينه في كتاب (القوانين) حماية العناصر البيئية وأهمها الماء , كون حمايتها هو ذاته حماية للعنصر البشري^(١٨)

وفي الحضارة العربية الإسلامية كان (إبن خلدون) سباقاً في ربط التاريخ بالجغرافية في مقدمته الشهيرة , فقد قسم الأرض إلى اقاليم تبعاً لنوعية مناخها وتأثير ذلك في طبائع الشعوب وأخلاق البشر , كما تطرق إلى نشأة البلدان تبعاً لطبيعة البيئة والمكان , وبحث في تأثير المكان في أحوال الناس الثقافية بما تحويه من قيم ومعايير ومعاني فربط مثلاً ما بين حرارة الجو وسمار البشرة وارتباطهما بالخفة والطيش وكثرة الطرب *

كما قدم علماء الاجتماع في العصر الحديث بما يعرف بـ (الحتمية الجغرافية) , وهي أولاً أسباب قيام التجمع والثقافة اعتماداً على عنصر البيئة , اذ تمثل جغرافية المكان بحسب مريدي هذه النظرية العامل الأبرز او حتى الوحيد في تمكين الإنسان , وإن كل تاريخ التحولات التي طرأت إنما كانت بفعل تأثير الجغرافية , بل ان المؤرخ والسياسي الفرنسي (كامي ديمولان Camille-Benoît Desmoulin / ١٧٦٠-١٧٩٤) ذهب في كتابه (كيف خلق الطريق النمط الاجتماعي / ١٩٠١ - ١٩٠٣) في جزئه الثاني في انه لو أعاد التاريخ نفسه لن يتغير فيه شيء لأنه سيكون إستجابة لنفس مقتضيات البيئة , ويرى من كتب في التاريخ الإنساني ومنهم المؤرخ الأمريكي (ويليام جيمس ديوانت -William James Durant- ١٨٨٥ - ١٩٨١) إن البيئة هي التي قدمت للإنسان امكانية التجمع , حيث إن استقرار الإنسان في المكان الذي يجد فيه ضالته وحاجته من حاجات الغذاء والماء هي أولى خطواته نحو التجمع وإنتاج الثقافة الخاصة فيه وقيام الحضارة فيقول " إن أول صورة تبدت فيها الثقافة هي الزراعة , اذ الإنسان لا يجد لتمدنه فراغاً ومبرراً إلا اذا إستقر في مكان يفلح في تربته ويجد فيه الزاد , أي يجد فيه مورداً محققاً من ماء وطعام , فالثقافة ترتبط في الزراعة كما ترتبط المدنية بالمدينة"^(١٩)

وعدت مواضيع (اثر البيئة في جسم الانسان وطباعة وتفكيره) من بين الموضوعات التي تم احيائها من التراث الاغريقي واعادتها للواجهة البحثية خلال عصر النهضة , ويعتبر المفكر والسياسي والفيلسوف الفرنسي (جان بودان Jean Bodin / ١٥٩٦-١٥٣٠) من أوائل كتاب عصر النهضة الذين اعتنقوا مبدأ (الاحتمية الجغرافية) , بحث في مسألة العلاقة بين الأرض والجماعات البشرية , اذ ربط بين طبائع الناس والمناخ وسعى إلى بحث العلاقة وتفسير الخصائص الطبيعية للمجتمعات أي تلك السمات العامة المميزه لها ودور البيئة فيها * , وقد عززت مكانة البيئة خاصة بعد نظرية (النشوء والارتقاء) لداروين بالغ الأثر في تفكير عدد من الجغرافيين مثل (راتزل) , فالإنسان في رأيه كالنبات والحيوان من نتاج الطبيعة وهو في نشاطاته وتطوره وآماله محكوم بها لا يستطيع منها فكاكاً , أو كما تقول تلميذته (ألين سمبل) "الإنسان من نتاج سطح الأرض ولا يعني انه مجرد ترابها ولكن يعني ان الأرض رعته وغذته وهبأت له اعمالاً ووجهت أفكاره وجابته بصعاب قوت من جسمه وشحذت تفكيره وخلقت له مشاكل الملاحه والري ولكن في نفس الوقت همست له بحلول لها" (٢٠)

ويأتي أثر البيئة في الثقافة حيث إن الصورة الذهنية مبنية على مفاهيم محيط الإنسان بإسقاط الفكرة على المادة وفق نظم فكرية محددة لتحويلها إلى قيم تعبيرية وهذه القيم تنعكس على الثقافة بجانبها المادي والمعنوي فلكلورياً وفنياً كذلك العمارة وهذا مانراه كمثال جلي في الحضارات القديمة ففي الشعوب الزراعية تقوم على اهتمام الناس على ملكية الأرض وأستغلالها ومن ثم تكون نظرتهم الى الوجود الذي يحيط بهم هي انعكاس لهذه الاهتمامات وهي تقسيم الارض هندسياً الى حصص يختص كل فرد بحصة منها يزرعها ويستغلها فهي امله ومصدر حياته ورزقه , ومن خلال طبيعة المكان الزراعي وممارسات الإنسان فيه , فالانسان الزراعي قد حمل على تصور المكان على إنه مستو يمكن تقسيمه إلى حصص وقد أستغل هذا المكان وفقاً لخطوط لحنته الشعور بالتوازي لأن خطوط الحرث في الحقل الذي على شكل مستطيل هي بالضرورة خطوط متوازية حتى تكون على مسافات متساوية وهذه الهندسة العملية قد فرضت تصوراً للمكان خاصاً بالشعوب الزراعية



شعب العراق القديم, هذه التصورات ادخلت العناصر الهندسية والخطوط المستقيمة وفقدت الاشكال حرية الانتشار مع محدودية الحدود الفاصلة بين الأشياء , وهذا مايمكن ان نراه جلياً في تركات العراق القديم من فنون وعمارة من تصاميم هندسية وزخارف منها المباني الدينية كالزقورات (شكل ١) (٢١)

شكل ١

خاضعاً لتصورات الإنسان الحبسية لبيئته وساهمت بشكل كبير في صياغتها



شكل ٢

وعلى الجانب الديني ترى (الباحثة) في إن نشأت أولى تلك المحاولات العقائدية عبر الأسطورة كمنظومة فكرية نشأت لتعليل كل ما يدور حوله من ظواهر غامضة ومتعددة والأجابة على أولى محاولة الإنسان للتفكير في الكون، وأنتجت عن أولى تصورات الإنسان للقوى الماورائية مرتبطة بالبيئة متمثلة بالآلهة المتصورة والمتعلقة بظواهر الكون ، فإن خوف الإنسان من تلك الظواهر قد دفعه لايجاد حلول تمثلت في ممارسات للتقرب من تلك القوى لدرء الاذى عبر ذلك التقرب، ثم ارتباط (الآلهة الأم) (شكل ٢) تلك الآلهة التي نستطيع ان

نجدها في أغلب الثقافات على مستوى العالم بمفهوم الخصب والتكاثر، فارتبطت المرأة بمفهوم الأرض والزرع، وبهذا فإن الحالة الفكرية الأولى وأولى محاولاته للتفكير أرتبطت إرتباطاً وثيقاً بالبيئة وهذا يظهر مدى تأثيرها في حياة الإنسان وتطوره

ثانياً - العامل الاقتصادي

يعد الإقتصاد Economic لاعب أساسي في قيام المجتمعات وتطورها ، والإقتصاد هو مجموعة الإجراءات التي يتم تنفيذها لتوليد وتبادل الوسائل اللازمة لتلبية إحتياجات المجتمع، و يؤكد ذلك (ديورانت) بقوله في مقدمة سلسلة مؤلفه (قصة الحضارة - ١٩٣٥) "إن العوامل الاقتصادية تأتي في أهميتها في مقدمة العوامل التي تؤسس للتطور"^(٢٢) اذ لايمكن لأمة أن تنتقل من البدائية إلى المدنية إذا بقيت في دور التنقل وأعتمدت الصيد لغذائها ومعيشتها، فعملية تأمين الغذاء المنتظم هو شرط أساسي للحصول على الكماليات التي تتضمنها الحضارة من علم وأدب وفن وترف ورخاء ، وهذا يتحقق بعد مرحلة مهمة وهي مرحلة الإستقرار ثم التجمع الذي يؤسس للتجمعات والمدن، ثم تنشئ الممارسات المجتمعية من هذه التجمعات ، فالتعاون بين الأفراد هو من يؤسس لثقافة تستمد قوامها من محيطها البيئي والإجتماعي وممتلكاتها من مواردها ، وتأسيس الصناعات والتجارة اللتان تنشأن في المدن ،وهذه العمليات الإقتصادية تزيد من حجم الثراء وإكثار الموارد وهذا بدوره ينعكس على حالة المجتمع وزيادة في تمدنه ونهضته ، فالعمليات الإقتصادية مرتبطة بالعامل الأول المتمثل بالبيئة ثم ينتقل الى مرحلة متقدمة تدعى لدى استاذ الجغرافية في جامعة السربون (فيدال دلابلاش Vidal de la Blache - ١٨٩٨) (بالامكانية) وهو مبدأ جغرافي سار عليه المؤمنون بحتمية التغير الجغرافي لصالح الإنسان وأحدهم (لوسيان فيفر) الذي يذهب الى "ان الإنسان يختار من إمكانات الطبيعة مايشاء لمستواه الحضاري والتقني لتأسيس أنماط النشاط الإقتصادي، الذي هو نتيجة تفكيره ومجهوده وحركته الدائبة في ايطار البيئة الطبيعية"^(٢٣)

هذه الطروحات تؤسس لأحد أهم نظريات نشوء الحضارات وثقافتها وهي النظرية الاقتصادية التي ترى هذا العامل دافعاً للنهوض والإستمرارية، وترى الباحثة إن العاملان الأقتصادي والبيئي يأتيان في مقارنة وإتصال، إذ توفر البيئة الأرضية الصالحة لنشوء الاقتصاد إذ يعزز وجود الإحتياجات الأساسية من ماء وغذاء إستقرار الأفراد ونشوء المجتمعات ثم وفرة هذه المناطق تنتج عنها تبادلات إقتصادية ونشوء العديد من الصناعات بالتالي تنشئ عملية إزدهار لتلك التجمعات ومنها قيام المدن والإمبراطوريات

وهنا يتقدم العامل الإقتصادي كعامل يغير من شكل الثقافة ويطورها ويزيد من ثرائها الفكري، وقد منح الفيلسوف و العالم الاقتصادي الألماني (كارل هانريك ماركس Karl Marx - ١٨١٨ - ١٨٨٣) في تأسيسه لنظريته في النظام الاقتصادي هذا العامل شأنًا كبيراً من حيث التأثير في حياة الفرد والمجتمع فيرى "إن الأحوال والأوضاع الاقتصادية لأي جماعة هي التي تحدد صورة نظامه السياسي، أو حتى طبيعة عقيدته الدينية وإنتاجه الفني والفكري"^(٢٤)

فماركس مؤسس الفلسفة (الماركسية) أو (المادية التاريخية) قد ربط كل نظم الحياة والإنسان والمجتمعات بالعامل الاقتصادي، فالقاعدة الاقتصادية عند (ماركس) هي أساس تشكيل البناء الإجتماعي وتطوره وأساس قيام الطبقات المختلفة من المجتمع ذاته، وإن تحليل ودراسة أي مجتمع إنساني وثقافته يقضي بدراسة اقتصاده أولاً، فالإقتصاد يحدد طبيعة كل أنظمة المجتمع المختلفة ومنها المنظومة الثقافية التي قاربتها الماركسية بالشرح عن طريق مجاز الأساس والبناء الفوقي، إذ تقع الثقافة في البناء الفوقي الذي يشكله بناء تحتي قوامه علاقات الإنتاج وأساليبه، وتدخل الثقافة ضمن صراع الطبقات الذي ينتهي وفق الرؤية الماركسية بهيمنة الطبقات التي تمتلك الإنتاج وبالتالي تؤدي الهيمنة إلى سيطرة تلك المنظومات وهذا ما ناقشته الماركسية وفق مفهوم (الأيديولوجيا)

وتمثل (الأيديولوجيا) تبريرات منطقية لبعض أساليب التفكير والسلوك، وهي مجموعة من المعتقدات لفئة من الناس يقوم عليها نظام سياسي معين أو حزب أو منظمة، وفي الفكر الفلسفي نسق من الآراء والأفكار السياسية والقانونية والأخلاقية والجمالية والدينية والفلسفية^(٢٥)، ويعد (ماركس) أول من إستخدم هذا المفهوم في علم الإجتماع، والأيديولوجيا بالنسبة للماركسية مفهوم يعبر عن مفهوم الهيمنة المرتبطة بسلطة الطبقة التي تمتلك الوسائل الاقتصادية (الإنتاج)، فالإنتاج يمثل عنصر القوة حيث يتبنى المجتمع أيديولوجيا الطبقة المهيمنة وتعتمدها بطريقة آلية من دون وعي فعلي بما تعتقده، "فالتبعية التي تمتلك وسائل الإنتاج المادي، تمتلك أيضاً وسائل الإنتاج الروحي"^(٢٦)، وتتقدم العولمة واحدة من أهم مفاهيم الأدلجة ومنها الأدلجة الثقافية التي تحاول جاهدة محو الخصوصيات الثقافية للشعوب وتمكين النموذج الثقافي الأمريكي في قيادة العالم ثقافياً وهذا النموذج الثقافي يحقق التمكين للنظام العالمي الجديد، وهنا يبرز

العامل الاقتصادي، فالعولمة تساهم مضمونها في الاساس اقتصادياً على اعادة صياغة النظم الإجتماعية وتصدير ثقافة وفق سياقات وأهداف اقتصادية^(٢٧) فالمنظومة العولمية مثلاً على ذلك الأثر المحرك للإقتصاد في توجيه الحركة الثقافية

وتقدم نظرية الأيديولوجيا بمفهوم القوة ودوره في توجيه الثقافة بنظرة فئة من الجماعة او طبقة من المجتمع وهذه الرؤية تقودنا الى دور منظومة السلطة والعامل السياسي كأحدى القوى التي كان لها دور في الهيمنة الاجتماعية

ثالثاً - العامل السياسي (منظومة السلطة)

لاشك ان العامل السياسي بارتباطه بمفهوم القوة والهيمنة والسيطرة تأثير على المجتمع وثقافته تحت غطاء السياسة , ويرتبط مفهوم السياسة بالدولة وتستخدم كلمة سياسة للدلالة على تسيير أمور أي جماعة وقيادتها، ومعرفة كيفية التوفيق بين التوجهات الإنسانية المختلفة والتفاعلات بين أفراد المجتمع الواحد، بما في ذلك التجمعات الدينية والأكاديميات والمنظمات^(٢٨)

وتنعكس التأثيرات السياسية على المجتمع كون المجتمع يقع تحت سلطة السياسة العامة للدولة وهي السلطة الأعلى في المجتمعات الإنسانية، وتعتبر السياسة عن عملية صنع قرارات ملزمة لكل المجتمع، تتناول قيم مادية ومعنوية وترمز لمطالب وضغوط، وتتم عن طريق تحقيق أهداف ضمن خطط أفراد وجماعات ومؤسسات ونخب حسب أيديولوجيا معينة على مستوى محلي أو إقليمي أو دولي , اذ يؤسس السياسة وانظمة الحكم مايعرف بالثقافة الرسمية ويتم بث القيم من خلال المؤسسات والأجهزة الرسمية مثل جهاز التربية والتعليم والجامعات والمعاهد والمؤسسات الدينية الرسمية والقوانين الرسمية , إذ تصبح الدولة شريعة التشريعات والقيم التي تستمد منها الثقافة قوامها، وغير ذلك من المعارف والرموز الثقافية التي ترعاها وتحافظ عليها وتضمن إستمرارها بالاضافة الى استخدام وسائل رسمية تابعة للدولة لبث الأفكار منها المؤسسات الرسمية في الدولة أو المجتمع كالمحاكم والوزارات والدوائر الحكومية أو المؤسسات المرخصة او الموافق عليها او المعترف بها، حيث ان الرموز التي تكون هوية شعب من الشعوب أو أمة من الامم تستقي مضمونها ومعانيها من الثقافة الرسمية الى جانب الثقافة الشعبية الموجودة^(٢٩)

ويعد أفلاطون أول من أيد سيطرة الدولة السياسية على سلوكيات الأفراد وأفكارهم من خلال سلطة الرقابة التي من رأيها واجب على الدولة الفاضلة القيام بها ومنها سلطة الدولة على الفنون التي تمثل أحد أهم الوسائل المؤثرة في المجتمع وهذا من خلال طرحه مايجب ان يكون عليه الفن (نظرية الجوهر) والتي أيدها العديد من الفلاسفة المسلمون ومنهم (ابن رشد)، كما أعاد هيجل طرحه لهذه المسألة عبر تمجيد الدولة القومية ورفعها فوق مصاف الأفراد الأعضاء فيها، وقد صبغ هيجل على الدولة صبغة القداسة فاعتبرها

مصدر كل الإرادات الفردية بل مصدر كل القيم والحقائق الروحية وهذا ما يطلق عليه من قبل المفكرين بالأيديولوجيا السياسية^(٣٠)

وتأتي هذه الآراء المؤيدة لسيطرة الدولة والجانب السياسي على الأنماط الثقافية إنما هو محاولة للسيطرة والهيمنة على المجتمع ذاته لما للثقافة دور في تسيير الجماهير ولما لها من اثر كبير في حياة المجتمع، ومن جهة أخرى فإن السلطة تحت منظومة الدولة التي نشأت في عالمنا المعاصر تعد شرعية حامية ومقدمة للثقافة الاجتماعية ورعاية لها من خلال الفعاليات المختلفة لذا تعاني الدول المحتلة (منها فلسطين) من ضعف تمكين الثقافة الاجتماعية

لذا تأتي علاقة الثقافة بالسلطة وجانبها السياسي بعوامل القوة في تحقيق الجوانب الثقافية المراد تمكينها وهذه القوة بالتأكيد لا تفرض الهيمنة التامة بل تساهم في ترك اثراً محدداً على المجتمعات ويمكن رصد هذا التغير والتحول الثقافي في العديد من الثقافات القديمة منها ثقافة العراق القديم التي انتقل فيها الطابع الثقافي الديني في العصر السومري الى طابع الامبراطوري للعصر الأكدي وهذا ماتؤكدته التراكات المادية وطبيعة المنحوتات القديمة من وضعية الصلاة السومرية التي كانت الموضوع البارز في الفن (شكل ٣-٤) الذي كان يعد وحدة اعلام السلطة الى مواضيع تمجيد السلطة (شكل ٥-٦) وهكذا بالنسبة للكثير من الآثار التي تعكس الثقافة السائدة بعد التغير في طبيعة الحكم



شكل ٣-٤ ---- شكل ٥-٦

في الشكل (٣-٤) متعبدون سومريون و(شكل ٥) يظهر رأس للملك سرجون الاكدي ويظهر شكل ٦ موضوع ملحة (النصر) الاكدية , وتعد هذه المنحوتات نموذج عن طبيعة التوجه الفني الذي يعكس بدوره الطابع الثقافي للمجتمع آنذاك .

رابعاً - العامل التقني (التكنولوجيا)

تعد التكنولوجيا من أهم الوسائل ذات التأثير المباشر في حياة الأفراد والمجتمعات، فقد لازم العامل التقني الإنسان منذ أولى محاولته للتكيف مع الطبيعة ومواجهته معها ومحاولة السيطرة عليها والسعي الى تسخيرها لمأربه وحاجياته، ويقدم مفهوم التقنية دالتين الأولى تتمثل في الإتاحات المتمثلة بالآلات والمعدات والأدوات الصناعية، أما الثانية فهي العلوم الإنسانية وهي مجموع المعارف والطرق العلمية اللازمة لتحويل

عناصر الإنتاج الى منتجات, وتطور التكنولوجيا عبر التاريخ أدى بدوره إلى تطور المجتمعات وتحسين معيشتها, من حيث ان التقدم والتطور الصناعي يشكّلان تنوعاً للمجتمعات من حيث النماذج المختلفة للحياة والتكاتف الاجتماعي, والتقنية كما يراها الفيلسوف الألماني (مارتن هايدجر Martin Heidegger) (١٨٨٩-١٩٧٦) أكثر من كونها مجرد أدوات بل تمتد إلى جزء من المصير, وهي ليست مجموعة من المعدات بل هي ذاتها عدة, وهي الطريقة في التعامل مع الطبيعة بما توفره الطبيعة من معدات وأسلوب بشري مبتكر للتعامل والبقاء والوجود^(٣١)

وتطور البشرية والمجتمعات مرتبط إلى حد كبير بالتقنية, بل ان التقنية في كثير من الأحيان أدت إلى انتقال البشر من مرحلة تاريخية إلى مرحلة أخرى, باعتبارها السلطة الدافعة لحدوث التغير الاجتماعي بالاشتراك مع العوامل الاجتماعية المصاحبة والمسيرة لها, فالبشرية أنتقلت من ثورة الغذاء إلى ثورة السلاح ثم إلى ثورة المعلومة أو كما يتم تسميتها بالثورة التكنولوجية التي تعد اليوم السلطة والقوة التي ترسم هوية المجتمعات ومكانتها ومدى تطورها وتصورها, لذا فقد قدم عدد من علماء الاجتماع والاقتصاد والفلسفة ما يعرف بنظرية (الحتمية التقنية Technological Determinism) والتي ترى إن أصل كل تغير اجتماعي هو إستجابة للتغير في الوسائل التكنولوجية, وأساس التحولات الاجتماعية كانت ولا زالت مرتبطة بهذا العامل المهيمن والمحرك المهم, وهو أساس لنهوض الحضارة, وقد أكد عالم الاجتماع والاقتصاد الفرنسي (سان سيمون Saint-Simon ١٧٦٠-١٨٢٥) في كتابه (مرشد الصناعيين) ان المجتمع لا يمكن ان يبني على الحرب ولا الغزو الذي لا يقوم على أسس علمية ومنطقية, بل من خلال التقدم الصناعي والتطور التقني فيه^(٣٢)

خامساً - العامل الديني

صحب الدين الإنسانية منذ نشأتها الأولى, ويعد واحداً من أقدم المنظومات الاجتماعية التي ظهرت في تاريخ البشرية, ولازمها عبر كافة عصورها التاريخية, فالفكر الديني ليس مرحلة منقضية من الفكر البشري بل متأصلة ومتصلة منذ بداية الوجود الأول, فالفكرة الدينية كانت منتشرة في جميع الأقوام القديمة لاسيما ان الدين أحد أهم مصادر الثقافة الإنسانية وأهم الظواهر المميزة للجماعات البشرية منذ بداية تكوينها^(٣٣), فالدين يكون القيم التي تعد مصدر للخطابات والسلوكيات والعادات الاجتماعية التي تشكل الثقافة, فالدين يؤسس بنية للعديد من الممارسات الجماعية في المجتمعات ومنها الطقوس الجماعية, فالطقوس أحد أهم الممارسات الجماعية التي نشأت منذ المجتمعات البدائية وهي أولى المسببات والحركات التي خلقت روح الممارسة الجماعية, إذ تقدم لنا الرسوم على جدران الكهوف أولى ظهور للجماعات الطقسية بين مجموعات صغيرة من البشر وهم يقومون بحركات وإيماءات يتضح أنها موجهة نحو القيام بطقوس محددة هدفها الاتصال بالعالم العلوي أو العالم الميتافيزيقي, وهذا التواصل جاء كحاجة للبشر في رحلتها الأولى بحثاً عن

علل للظواهر المختلفة ولاسيما ظواهر الطبيعة كأول من أثر على حياة الإنسان، "ولقد كان (شترأوس) مشغولاً بالطريقة التي تتشابه بها لغات الثقافة الأولى وأساطيرها"^(٣٤)، ويذهب العديد من الأنثروبولوجيين إلى أن الإنسان الأول يعيش الظروف ذاتها وكانت تلك الطقوس إستجابة لسعي راحل خلف تفسير الظواهر تفسيراً مرجوعاً إلى العالم الميتافيزيقي، فإبتدع الإنسان في محاولته للتفكر (الأسطورة) وهي قصص تحكي بداية الخلق وبداية تكوين الأشياء وأسباب الظواهر، وقد تحول هذا الإيمان الكلي بهذه القصص عن الإنسان الأول وعن الآلهة والكانونات الغيبية إلى (معتقدات)، والمعتقد هو الإيمان إيماناً كلياً بحقيقة (الأفكار) الذي يصبح بحكم ذلك الإيمان المطلق (مقدساً)، والمقدس هي حالة تمنح لكون الشيء مشرفاً ويستحق الإحترام الروحي أو التفاني أو الرهبة أو الخشوع بين أوساط المعتقدين والمؤمنين، ويمثل المقدس أشياء يبني الإنسان عليها حياته وتقاليد وعاداته وتمط بناءه السلوكي، ويرى الكاتب والمفكر الفلسطيني (عزمي بشارة) أن التجربة الدينية ما هي إلا تجربة للمقدس^(٣٥) وينبثق عن الشعور بالمقدس (ملكة روحية) تأتي من الحاجة لتحويل تلك الملكة إلى فعل وممارسة يترجم شعور الإنسان بالرهبة والتسامي وغيرها من المشاعر غير العادية، شعور يضيف إلى تجربة المقدس البعد الإيماني والمؤسسي التنظيمي (أي تدبير المقدس)، وهذا يحصل عادة إجتماعياً^(٣٦)

فهذه المعتقدات صنعت نفساً جماعية تتبنى تلك القصص والقيم المنبثقة عنه، وتتمظهر تلك التنظيمات الاجتماعية بصنوف شتى منها طقوس شعائرية وافراح واحتفالات بهيجة و ممارسات متعددة منها الإيقاع والرقص الحر والموسيقى كأول أشكال هذا السلوك الإندفاعي الذي تحول تدريجياً إلى طقس متقن ومنظم^(٣٧)، هذا الطقس الذي أصبح جزءاً من ثقافة المجتمعات لكونها تجمعات إجتماعية شعبية منظمة وثابته من حيث الوقت والممارسة

وقد احتلت الظاهرة الدينية إهتمام الباحثين في العلوم الإنسانية ومنها علم الأديان المقارن والميثولوجيا، كما ناقشها علماء الاجتماع والميثولوجيا وخاصة أن العلماء قد عمدوا على دراسة الثقافة البدائية، معتبرين أن ظاهرة اجتماعية تخضع للتفاعل البشري في ايطار الجماعة، وقدم عالم الاجتماع (إيميل دوركهايم Emile Durkheim ١٨٥٨-١٩١٧) قراءة علمية للدين بوصفه ظاهرة إجتماعية ومؤسسة للظواهر الإجتماعية الأخرى، وهذه الظاهرة لايمكننا فهم جوانبها وجنباها إلا من خلال الكشف عن طبيعة الوجود السوسيولوجي للدين وممارسته في مجتمع بعينه وخاصة أن فكرة المجتمع هي من تشرعن وتضع جوهر الدين والتمظهرات الدينية ليست إلا تمظهرات اجتماعية وتنجس عن ظواهر جماعية والطقوس الشعائرية ليست إلا ضروب لهذا المسلك^(٣٨)

ونستشف من خلال الطروحات التي قدمها باحثو العلوم الاجتماعية أن الدين في طروحاتهم انعكاساً لذهنية الإنسان الأول وحاجته وهواجسه، وهو اختراع جمعي من قبل الإنسان الأول، إذ جسدت أولى العقائد علاقة الإنسان بالطبيعة خوفه من الظواهر وارتباطه بالأرض، وهذا ما يذهب اليه علماء النفس، إذ يرى (فرويد) في

ان المحاولات الأولى للإنسان للتفكير والتي تمخضت عن المعتقدات المنتجة عن الفكر الأسطوري ماهي إلا حاجات بشرية ونتائج لاشعورية وجدت لترضي رغبات الواقع المخيب وتسد بواقعها الخيالي الحاجات البشرية في عصر الثقافة الأولى التي ارتبطت أولاً بالطبيعة , وأظهرت الأسطورة التعليلية للظواهر لتنتقل نحو أساطير الأبطال الذين ترجموا تلك الرغبة بأفعالهم غير الواقعية والخرافة البعيدة عن متناول عمل البشر في الحياة العادية فوجدت ممارسات لتمنيات بشرية لتشبع تلك الرغبات, وقد قارب فرويد بين عمل التفكير الأول المتمثل ب(الأسطورة) وبين (الحلم), اذ الحاجة البشرية أنتجت لا شعورياً الأسطورة كما أنتجت الحلم , فهما نتاج تمنيات البشر المكبوتة التي لا تجد التعبير عنها إلا في حياة الحلم أو الأسطورة وهي تمنيات فردية تظهر في الاحلام و مشتركة للعديد الأشخاص او البشرية جمعاء لتظهرها الأسطورة^(٣٩)

فالدين يقدم للإنسان ما يسد ذلك الفراغ الكبير وهو الجانب المعرفي الذي لطالما كان الانسان شغوفاً بمعرفته ويملؤه بخيالات تستطيع أن تشبع رغباته المختلفة وحاجاته السايكلوجية والروحية, تلك الاحتياجات التي استطاع ان يسدها ثم يعتقد بوجودها معزياً اياها الى العالم العلوي, ذلك العالم الذي ولد مع مخيلة الانسان ولبعد هذا العالم أوجد ما يستطيع من خلاله التواصل فأوجد الطقوس كممارسات للتواصل مع تلك القوة المسيطرة على حياته, وهذه الممارسات التي تأتي بشكل جمعي توحد بين الأفراد وتحقق بينهم نوعاً من التكامل الأخلاقي ... هذه المشاركة الجمعية عاملاً أساسياً في نمو الدين, كما تمثل هذه المعتقدات والممارسات هي التي توحد بين الأفراد وتحقق بينهم نوعاً من التكامل الأخلاقي الذي يتحدد في جماعة دينية معينة , وبذلك تتحقق المشاركة الجمعية وبهذا يصبح الدين عاملاً جامعاً مهما ورافداً يصب في الوعاء الجمعي للثقافة كونه يحدد سلوك الفرد في مجتمع معين وسلوكه في التعامل مع الخالق عن طريق الممارسات والطقوس التي تكون جزءاً من الخصائص الاجتماعية المكونة لهوية المجتمع , كما أثرت الاديان اللاحقة (السماوية) في ثقافة المجتمعات وهذبت سلوكها ومنحتها نمطاً ساهم في تشكيل هويتها وثقافتها العامة .

النتائج والإستنتاجات

النتائج

- ١- يشكل العامل الطبيعي-البيئي أثراً في تحديد البنية الثقافية السايكلوجية للعنصر البشري من حيث طبيعة الأجواء المحددة لطبيعة الثقافة .
- ٢- تتيح الجغرافية الإمكانيات المساعدة في عملية الإستقرار للمجتمع و تمكين العناصر الثقافية وتطورها .
- ٣- يتعلق التطور الثقافي بصورة مباشرة بالإمكانيات التي يقدمها العامل التقني كوسيلة وأداة دافعة نحو تطور وسائل المجتمع التكنولوجية .

٤- منظومة السلطة والعامل الإقتصادي قوة لها دور في الهيمنة الإجتماعية وتوجيه الكيان الثقافي للمجتمع .

٥- يعد العامل الديني رافداً يمد المجتمعات بالقيم المحددة للسلوكيات والمنتجة الممارسات الطقسية وتحديد القواعد الموجهة للسلوك كعنصر ثقافي .

الإستنتاجات

بالتالي العوامل التي تم المرور بها ذات تأثير مباشر في صنع الثقافة لأي جماعة , فالانماط الثقافية باختلافها انما تأتي من إختلاف العوامل المسببة واختلاف التأثيرات ما هو إلا سبباً لإختلاف الأنماط الثقافية بين الجماعات حول العالم , بالتالي فحركة العوامل المؤثرة ونوعيتها ينتج إختلافاً في الثقافات وهذا بدوره يؤدي إلى نشوء خصوصية ثقافية لكل مجتمع من المجتمعات أو جماعة من الجماعات البشرية ويمنحها ميزتها, وتنجب هذه المسببات بتأثيراتها مجموعة خواص تجتمع لتشكل الثقافة بروافدها التي تصب في وعاء واحد وتندمج لتظهر بالنمط المنتج

وتتشارك العوامل في عملية الدفع الثقافي, فالبيئة تحدد سلوك الانسان ومستوى تمدنه وتدفعه نحو التفكير وهذه الأفكار تدفعه لممارسات وطقوس, وتساهم في طبيعته البيولوجية, وترتبط البيئة بعوامل أخرى من حيث انها تقدم اتاحات كبيرة وثروة تؤسس لتلك العوامل منه العامل الإقتصادي .

الحواشي

^(١) حسن حنفي :دراسات فلسفية, الجزء الثاني, في الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة, مؤسسة هنداوي, المملكة المتحدة , ٢٠٢٠, ص١٢٣.

^(٢) الخطيب عمر عودة :-لمحات في الثقافة الاسلامية , , مؤسسة الرسالة , بيروت , ط٣, ١٩٧٩. ص ٣٠

^(٣) كوش . دنييس : مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية , ت منير السعداني , المنظمة العربية للترجمة , ط١ , بيروت , ٢٠٠٧ , ص١٧-٢٦.

^(٤) المولى . سعد : مفهوم الثقافة , النبأ , العدد ٦٣, ٢٠٠١ , ص٤.

^(٥) حسين ابراهيم احمد : الثقافة المتوترة من ملامح المشهد الثقافي العربي , ط١ , مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع , سورية , دمشق , ص٢٥.

• المركزية الأتنية :مصطلح من ابتداء عالم الاجتماع الأمريكي (وليم ج سامر) وهو مصطلح دال على تلك النظرة للأشياء التي ترى ام مجموعتها الخاصة هي مركز الأشياء كافة , وتركيزي نفسها وتتباها بأنها الأرقى وتنظر الى الاجانب نظرة احتقار وتعتبر ان عوائدها الخاصة هي وحدها الصالحة , ومن الامثلة على ذلك ,كان الاغريق يستخدمون مصطلح برابرة على الشعوب الغير اغريقية وهذا معبر عن فكرة (التفوق الاثني) (كوش . دنييس : مصدر سابق , ص٣٩)

^(٦) لنتون .رالف : الانثربولوجيا وأزمة العالم الحديث , ت عبد الملك الناشف , المكتبة العصرية , بيروت, ١٩٦٧ , ص١٤٤. كذلك كتابه :الاصول الحضارية للشخصية , عبد الملك الناشف , المكتبة العصرية , بيروت , ١٩٦٤ , ص٦٠.

^٧ (كلوكهون . كلايد : الانسان في المرأة , علاقة الانثروبولوجي بالحياة المعاصرة , ت شاكرا مصطفى , المكتبة الاهلية , بغداد , ١٩٦٤ , ص

^٨ المعلقة . جميل خليل نعمة , الدولة المثلى في فلسفة ارسطو السياسية , دار الكتب العلمية , بيروت , ٢٠١٩ , لبنان , ص ٢٠ .
^٩ افلاطون : الجمهورية , ت هنا خباز , مكتبة النهضة , بغداد , ١٩٨٦ , ص ٥٦ .

^{١٠} ارسطو : السياسات , ت احمد لطفي السيد , منشورات الفاخرية , الرياض (ب , ت) ص ٩٧ .

^{١١} الزبياري . طاهر حسو : النظرية السيولوجية المعاصرة , دار البيروني للنشر والتوزيع , ٢٠١٧ عمان , الاردن , ص ٥٢٧ .

^{١٢} حسين قصي : سوسيولوجية الأدب : دراسة الواقعة الأدبية على ضوء علم الاجتماع , دار ومكتبة الهلال , ٢٠٠٩ , ص ٥٠ .

^{١٣} اكرم وليم ابراميا : البعد السوسيولوجي لأداء الممثل المرتجل واثره على المتلقي , اطروحة دكتوراه غير منشورة , كلية الفنون الجميلة , جامعة البصرة , ٢٠١٥ , ص ١٤

^{١٤} عصام عبد الشافي : الثورة والبناء الحضاري عند ابن خلدون , المعهد المصري للدراسات , اطلع عليها بتاريخ ٢٠٢٢ / ٣ / ١٢ , <https://eipss-eg.org> .

^{١٥} (كاريندرس . مايكل : لماذا ينفرد الانسان بالثقافة , ت شوقي جلال , سلسلة عالم المعرفة , الكويت , ب , ت , ص ١٨ .

^{١٦} (لنتون . رالف , مصدر سابق , ص ٤٢

^{١٧} (مارفن . هاريس : مقدسات ومحرمات وحروب , ترجمة السيد احمد حامد (مقدمة المترجم) ج ١ , ص ٤-٣ .

^{١٨} (ساعد هماش : مصدر سابق , ص ١٨٣ .

• يقسم (ابن خلدون) الأقاليم إلى أقاليم معتدلة وأقاليم منحرفة ويربط بين المناخ كالهواء وأخلاق البشر وأعطى مثلاً بسكان السودان الذين وصفهم بـ «الخفة والطيش وكثرة الطرب والولع بالرقص والحمق» قول: «ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حراً فتكون أكثر تفشياً فتكون أسرع فرحاً وسروراً وأكثر انبساطاً ويجيء الطيش على أثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلاً أهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح و الخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة». (العجلان . احمد : التوظيف السياسي لنظرية البيئة الطبيعية بين ابن خلدون ومونتسكيو , دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع , ط ١ , سورية , دمشق , ٢٠٠٨ , ص ٧٩ .)

^{١٩} (ديورانت . ول : مصدر سابق , ص ٤

• لقد قسم بودان العالم الى ثلاث مناطق ((الحارة والباردة والمعتدلة) ثم قسم الجماعات البشرية بطبائعهم وفق تلك المناطق , فأهل الشمال برأيه يملكون القوة ويتميزون بحب العمل والقدرة والبراعة في الاعمال التقنية , أما اهل الجنوب فيراهم ماكرون يغلب عليهم الطابع التأملاني لذا فإنهم بارعون في الفلسفة ويكون للدين دوراً واضحاً في حياتهم , اما اهل الوسط فهم معتدلون يقوم نظام حياتهم على العقل والعدالة وممارسة التجارة والقدرة على تشريع القوانين (فيفر . لوسيان : الأرض والتطور البشري , ج ٤ , ترجمة السيد محمد غلاب , المركز القومي للترجمة , القاهرة , ٢٠١٥ , ص ٤٥ / ايضاً (الربيعي . اسماعيل نوري : اصول السلطة والسيادة (بودان , ستراوس , هوبس) www.arabprf.com .

^{٢٠} (عبد الفتاح محمد وهيبه : جغرافية الانسان , دار النهضة العربية , بيروت , ١٩٨٠ , ص ١٥ .

- ^{٢١} (الألفي. أبو صالح: الفن الإسلامي أصوله، فلسفته، مدارسه، دار المعارف، لبنان، ب، ت، ص ٦٧.
- ^{٢٢} -ول ديورانت، مصدر سابق، ص ٤.
- ^{٢٣} (عبد الفتاح محمد وهبة: جغرافية الإنسان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٣.
- ^{٢٤} (بدري محمد فهد: محاضرات في الفكر والحضارة، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٠٩، ص ٣٩).
- ^{٢٥} (م. رونتال/ ب. يودين: الموسوعة الفلسفية، ت. سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ص ٦٧.
- ^{٢٦} (بشير عبد الفتاح: الخصوصية الثقافية، الموسوعة السياسية للشباب، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٢٣-٢٤.
- ^{٢٨} (العالول. هاشم: السياسة والاقتصاد وجهان لعملة واحدة، موقع جريدة الرأي، الاثنين، ٢٠٢٠/٣/٢، ١٠:٠٠، <http://alrai.com/article>، ينظر ايضاً ويكيبيديا:
- ^{٢٩} شريف كناعنة: دراسات في الثقافة والتراث والهوية، المؤسسة الفلسطينية للدراسة الديمقراطية، رام الله فلسطين، ٢٠١١، ص ٤٧.
- ^{٣٠} (علي عبد المعطي محمد: الفكر السياسي الغربي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ٢٠٠٠، ص ٣٨٥-٣٨٦.
- ^{٣١} (هايدجر. مارتين: التقنيّة – الحقيقة- الوجود، ترجمة محمد سيلا، عبد الهادي مفتاح، المركز الثقافي العربي، ص ٤٤.
- ^{٣٢} (عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، ج ١، ذوي القربى للطباعة والنشر، ط ٢، ص ٥٧٠.
- ^{٣٣} (محمد رزق: المؤثرات الدينية في الفلسفة اليونانية، دار الكتب العلمية ٢٠١٢، ص ١٤.
- ^{٣٤} (الكناني. علي عبد الله عبود: المنهج البنائي في تحليل النتاجات النحتية (حركة الحصان) اختياراً، مجلة فنون البصرة، كلية الفنون الجميلة، جامعة البصرة، العدد ٢٣، سنة ٢٠٢٢ م، ص ٨.
- ^{٣٥} (عزمي بشارة: الدين والعلمانية في سياق تاريخي، ج ١، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، ط ١، بيروت، ٢٠١٥، ص ١٩.
- ^{٣٦} (عزمي بشارة: الدين والعلمانية في سياق تاريخي، ج ٢، م ١، ص ٢٠.
- ^{٣٧} (السواح. فراس: دين الإنسان، مصدر سابق، ص ٥٣.
- ^{٣٨} (كمال طبرشي: اسئلة فلسفة الدين في كتابات عزمي بشارة، المركز العربي للأبحاث، مجلة رؤى للدراسات المعرفية والحضارية، الدوحة، قطر، ص ٣٠.
- ^{٣٩} (Merkur. Daniel: Psychoanalytic Approaches to Myth –Freud and the Freudians، Psychology Press, 2005, p4.